ثب وثبا ...

للأستاذ علي الطنطاوي

كان أبي رحمه الله يوقظني كل غداة لأصلي الصبح ، يناديني فأجيبه والنوم في عيني أقول :

— حاضر . سأقوم حالا .

— فيقول : لا تتراخَ . ثب وثباً .

فأتراخى وأتكاسل ، ثم أتناوم فلا أردّ ، أو أردّ ولا أقوم ، حتى يملّ مني فيدعني . وتوفي أبي ، وكبرت ، وقرأت الكتب وجالست العلماء ، وخبرت الدنيا ، وجربت الأمور ، فلم أجد تجربة أجدى ، ولا كلمة أنفع ، ولا موعظة أعظم أثراً في المعاش والمعاد ، والأفراد والجماعات . من كلمة أبي تلك : « ثب وثباً » لو أن الله جلّت حكمته مدّ في أجله قليلا حتى يعوّدني العمل بها ، والسير عليها ، ولم تخترمه المنية وأنا صغير لم أتمرس بعد بحرب الشيطان ولم أستكمل العدة لدفع أذاه ، ورد كيده عني ، فلبثت في نضال معه إلى اليوم ، أغلبه حيناً ، ويغلبني ، لعنة الله عليه ، في أكثر الأحيان .

تدوّي هذه الكلمة في أذني كل صباح ، فأسمع منها صوت أبي يقول لي : « قم إلى الصلاة ؛ فالصلاة خير من النوم ، وبكّر فالبركة في البكور » فيقول الشيطان : « الوقت فسيح ، والنوم لذيذ ، والفراش دافئ ، والجو بارد » ولا أزال بين داعي الواجب وداعي اللذة ، أفكر في متعة الصلاة وثواب الآخرة ، فأتحفز للقيام وأتصوّر مشقة الوضوء ، وبرد الماء ، فأنقلب من جنب إلى جنب . ولا تزال نفسي بينهما كنوّاس(١) الساعة ، تتردّد بين : « قم » و« نم » حتى تطلع الشمس ويفوّت الشيطان عليّ الصلاة ، ويضيّق عليّ الوقت ، فآكل طعامي لقمة بالطول ولقمة بالعرض ، ولقمة تعترض في صدري فأغصّ بها ، وألبس ثيابي جورباً على الوجه وجورباً على القفا ، وعقدة مائلة وقميصاً أعوج ، وأنسى من عجلتي

(١) النواس : رقاص الساعة . وفي المعاجم : ناس تذبذب متدلياً . ومنه قولهم : له ذؤابتان تنوسان على كتفيه .

وبيدي الآن صفحة كتبت بخط نسخي جميل وباللغة التركية وهي رسالة من أحد أدباء الترك إلى آخر يعرب عن تحسره على الشاعر الكبير الصديق المرحوم محمود عاكف . ولست أتذكر الآن المنشئ ولا الكاتب .

وهي صحيفة جديرة أن تترجم إلى العربية وتنشر تجديداً لذكرى شاعر الإسلام عاكف الذي سعدنا بصحبته في مصر سنين .

وهاتان ورقتان نشرتهما فإذا أبيات لي في وصف دمشق وإحدى ذكرياتها مسطورة بالرصاص وللمداد فيها إصلاح وتغيير كالتمثال لا يزال يعمل في جوانبه إزميل النحات ، وأول الأبيات :

دمشق يا قرة العيون وبسمة الفؤاد والجبين
لله يوم خلست فيه ساعاً من الدهر ذي الشجون
دخلت خلف العصور داراً عاد بها غابر السنين
رأيت تاريخنا تجلى يفيض بالشعر والفنون الخ

وهي أبيات كثيرة وصفت فيها داراً قديمة من دور دمشق ذات الحدائق والنوافير والنقوش والزخارف التي تمثل تاريخنا يوم كنا نبني بأيدينا وعقولنا لأنفسنا قبل أن نسلب الاستقلال في كل شيء ، ونعنى بالتقليد في كل شيء .

وآخر الأبيات :

خرجت منها يقول قلبي للرجل : بالله أنظريني

ومن الأوراق كتاب من النادي العربي في دمشق يتضمن شكري على محاضرة ألقيتها فيه موضوعها : النهضة العربية .

وأوراق غير هذه فيها حساب الفنادق . ومالي وللحساب .

هذا ظرف صغير نشرتُ منه هذه الذكر كلها ، وقد مضت عليها تسع سنين وكأنما وقعت أمس .

وكل حياتنا ملأى بالوقائع ، والفكر والعبر ولكنها تمر سريعة مرّ الزمان . ويُنحى عليها الزمان الحماء بالمحو والنسيان . فهل من مُدّكر .

أثارت هذه الوريقات ذكريات في نفسي ، تتصل بها ذكريات وكشفت النسيانَ عن حوادث عفّى الزمان على آثارها . فسارعت بكتابة هذه الكلمة قبل أن يمحوَ الزمان الذكر ، ويفجع بعد العين بالأثر .

عبد الوهاب عزام

بعض أوراق ، وأهرول في الطريق ، فأسيء هضمي ، وأتعب معدتي ، وأضحك الناس عليّ . ثم إني ما كسبت من هذا الإبطاء نوماً ، ولا ازددت راحة ، ولو (وثبت) من أول لحظة لكان في ذلك رضا ربي بأداء الصلاة ، وصحة جسمي بحسن الأكل وإجادة المضغ ، وإكمال عملي بإعداد أوراقه على أناة ، وحفظ مزاجي بين الناس بالسير على مهل .

وأنظر فأجدني أقرأ كل يوم مهما أقللت أكثر من مائتي صفحة ، حلها مما لا يفيد علماً ، ولا يعلّم أدباً ، ولا يقوّم خلقاً ، وأدع عشرات الكتب الجدّية النافعة في اللغة والأدب والفقه والتفسير ؛ فأعزم على قراءتها ، وأذهب فأعدّها وأصفّها على مكتبي ، وأهم بالشروع بها ، فأجدها كثيرة ، فأرجيء النظر فيها ، وأقول : سأبدأ في غد فما يضر التأخير إلى الغد وقد أخرتها هذه السنين كلها ، فيجيء الغد والذي بعده ، وتتصرم الأيام ، وأقرأ خلال ذلك أضعاف أضعافها من الكتب التافهة ، والصحف والمجلات التي لا تفيد شيئاً ، وليس فيها إلا اللهو والتسلية وإضاعة الوقت ، وتبديد ساعات العمر ، وتبقى هذه الكتب مرصوفة على مكتبي يعلوها الغبار ، حتى ترفعها ربّة الدار ، ولم أمسسها ولم أقترب منها .

ولو أني (وثبت إليها وثباً) لفرغت منها من زمان طويل .

وأنظر فأجدني قد كدت أنسى اللغة الفرنسية لطول ما أعرضت عنها ، وانصرفت عن الاشتغال بها ، وهي نافعة لي لا حباً بأهلها قبح الله أهلها ؛ بل لأن فيها حكمة ، والمؤمن يطلب الحكمة حيث وجدها ، وآسف أني بدأت بتعلمها من سنة ١٩١٨ ووالبت دراستها حتى حذقت صرفها ونحوها ، ووقفت على شعرها ونثرها ثم نسيتها . وأعزم على تجديد العهد بها ، والعودة إليها ، وأهيىء كتبها ومعاجمها ، ولكني لا (أثب) إليها . فتمضي السنون وأنا لم أشرع بها .

وأنظر فأرى الشحم قد ركبني ، واللحم قد علاني ، فأبطأ حركتي ، وأثقل أعضائي ، فأطالع كتب الرياضة ، وأستشير رجالها ، وأشتري أدواتها ، وأنوي أن أمارسها ، وأواظب عليها حتى يذهب شحمي ، وينشط جسمي ...

وأزمع وضع كتاب عن الخوارج ، وآخر عن المهلب ، وكتاب في الدين الإسلامي ، وأجمع المصادر وأرسم الخطط ، ولا يبقى إلا أن أمسك القلم لأكتب ...

وأحاسب نفسي ، فألقاها قد تنكبت طريقها ، وتحولت عن وجهتها ، وأنستها الدنيا آخرتها ، وصرفتها عن ربها ، فأعزم على التوبة ، والتحري في المطعم والمشرب ، وكفّ البصر وحفظ اللسان ، والمحافظة على السنن والنوافل ، وهجر رفاق السوء ، وصحبة من يذكّر بالله ويدلّ عليه ...

ولكني لا (أثب إلى ذلك) ، بل أقبل عليه متراخياً ، أرقب به يوماً بعد يوم ، فتمرّ الأيام ، ولم أشرع برياضة ، ولم أبدأ بكتاب ، ولم أحقق توبة وإنما استسلمت للحياة فدار دولابها عليّ وأنا ساكن ، يصبح الصباح ويمسي المساء ، (والحالة هي هيئة ، والعيشة هي هيئة) ، مانشطت بالرياضة جسماً ولا شحذت بالمطالعة عقلاً ، ولا زكيت بالتوبة نفساً ، خسرت هذا كله لأني عصيت أبي ، وخالفت عن أمره فلم أثب من الفراش وثباً ، وبعت هذه الخيرات بتمددي ساعة تحت اللحاف ، فما أعظم المبيع ، وما أقل الثمن !

وهذا هو مرضنا جميعاً ، وعلة علتنا وسبب أدوائنا ، وليس تنقص واحداً منا المواعظ والأفكار ، ولا يعوزه معرفة طرق الخير . فالمواعظ مبثوثة في كل كتاب ، ومترددة على كل لسان ، ومائلة حتى في وفاء الكلب ، وصبر الحمار ، وأدب النملة ، وتوكل العصفور وظاهرة في طبائع الأشياء ، وصفات الجمادات ، من شاء موعظة وجدها ، ومن ابتغى نصيحة وقع عليها . وطرق الخير معروفة لا يجهلها أحد ، فكل أب يجد إن فكر خطة لتربية ولده خيراً من خطته ، وكل تاجر يجد أسلوباً أحسن من أسلوبه لتوسيع تجارته ، وكل رجل يعرف الطريق لتحسين صحته ، وإصلاح سيرته في بيته مع أهله وزوجته ، وفي طعامه وكسوته ، وفي يقظته ونومته وأحمق الناس تمر به نفحات يرى فيها سبيل العقل واضحة ، وأفسق الناس تسمو نفسه لحظات يبصر فيها قبح الفسوق وجمال الطاعة ، ويشعر بالندم ويعزم على التوبة ، ولكن ينقصنا المضاء والتصميم و (الوثوب) إلى الخيرات حين تلوح لنا وتمر بنا .

هذا هو مرضنا الذي طالما أضاع علينا أموالا ومكاسب ، وخيرات ومنافع ، وأخرنا والأمم تتقدم ، وهو مرض الجماعات منا والحكومات ، فاعرضوا تاريخنا الحديث تروا كم فرصة أضعنا وكم غنيمة فوتنا ، بل انظروا ما ذا صنعنا في هذه الحرب وحدها واعجبوا منا إذ فتحت لنا إلى آمالنا باباً واسعاً فلم ندخله ، ووضعت في أيدينا سلاحاً ماضياً فلم نستعمله : عجزنا أن نكون أقوى من عدونا ، فأضعفته هذه الحرب لنقوى بضعفه ، وشغلته هنا لننتهز

الفرصة فنسترد منه ما سلب منا ، فأدركتنا رقة الشعور، فرحمناه ، وأشفقنا عليه أن نزعجه بمطالبنا فى بلواه ، وآثرنا الذوق واللطف على واجب الوطنية والشرف ، فلم نفتح أفواهنا لنقول له : « أعطنا الذى سرقته منا » بل أعنّاه على عدوّه وعلى أنفسنا ، وأيدناه بألسنتنا وأموالنا وأيدينا ، وزعم لنا ، أنه ما حارب إلا لينصر الديموقراطية ، فقلنا : « صحيح . فلتعش الديموقراطية » وقال لنا إنه يبذل دمه ليدافع عن الضعاف المظلومين ، ويطهر الأرض من النازيين الباغين ، فقلنا : « بارك الله فيك ، هذه شيمة السادة الأكرمين » . وقال لنا ، إنه إن يُغلب فى هذه الحروب يتهدم صرح الحضارة ، ويتهدّ بناء التمدن ، ويرجع البشر إلى شريعة الغاب ، وطبيعة الذئاب ، فقلنا : « هذا لا شك فيه . فأنتم حماة الحضارة ، وأنتم أهل المدنية ، وما الألمان إلا برابرة همج متوحشون » . ولم يكن فينا أمة عاقلة إلا الهند ، فلم تجامل هذه المجاملة السخيفة التى جاملناها ، ولم تقترف هذه الجريمة التى اقترفناها ، ولم ترق مثلنا الدموع على باريس . دار الفسقة الظالمين ، أعداء العرب والمسلمين بل قامت تنادى بطلب الاستقلال ، على حين كان أدباؤنا يمجدون الديموقراطية فى الصحف ، ومشايخنا يدعون لها على المنابر بالنصر فكانت عقوبتنا عاجلة ، فلم تمر ثلاث سنوات على استجابة الدعاء وانتصار الأعداء ، حتى فعل بنا أهل باريس التى بكينا عليها يوم نكبتها (جدد الله نكبتها) ولندن التى مجدنا ديمقراطيتها ، ما لم يفعله هتلر باليهود ، (وماذا فعل هتلر باليهود؟) ولا موسولينى فى الحبشة ، ولا الذئب بقطيع الغنم ، فضربوا دمشق أقدم مدن الأرض بالقنابل ، وذبحوا عشرات الألوف من أهل المغرب وأعانوا الهولنديين على الأندونسيين ليملكوا أرضهم ، ويسلبوهم بلادهم ، ويقتلوا أبناءهم، ويسرقوا ثمارهم ، ورموا فلسطين بشذاذ الآفاق ، ونفايات الأمم ، أهل الذلة والمسكنة اليهود ، ودفعوا إليهم الرصاص ، وأعطوهم السلاح ، فسلطهم الله عليهم حتى ذبحوهم بسلاحهم ، ثم رأوهم لا يستحقون الرصاص فالرصاص للجندى الشريف ، فأعدوا لهم السوط فجلدوا به جلودهم ، ومزقوا أبشارهم ، فصاروا بذلك أذل من اليهود ... وتنكروا لمصر من بعد ما لجأوا إليها فآوتهم ، وسألوها المال فأعطتهم ، وخطبوا منها على ظلمهم لها الودّ فوادّتهم ، واستنصروها وهم أعداؤها على قوم لم يعادوها فنصرتهم ، فكان جزاءها منهم بعد ما أكلوا خبزها ، وأخذوا مالها ، وسكنوا فى مساكنها ، جزاء الذى أطعم الحية فلدغته ، وآوى الضبع فأكلته .

فهل اعتبرنا ؟ وهل عرفنا أن من لا (يثب) على الفرصة تفلت منه ، ومن لا يضرب الحديد حامياً يبرد ويشتد فيعجز عنه ؟ هل اعتزمنا (الوثوب) فى فلسطين ، وفى مصر ، وفى المغرب ، أم لا نزال نؤجل ونسوّف ، حتى يأتى يوم لا ينفع فيه الوثوب ، ولا يجدى العمل ؟

* * *

هذه هى علتنا أفراداً وجماعات ، مع أن المسلم أبعد الناس عن هذه العلة ، وأحقهم بالبرء منها ، لأن من مقاصد العبادات فى دينه ، تعليمه التنظيم والتصميم ، لولا ذلك ما جعل الله للصلاة (وقتاً) إذا تقدمت عنه دقيقة لم تصح الصلاة ، ووقّت للصوم وقتاً إن نقصت منه دقيقة فسد الصيام ، وحدّد للحج وقتاً إن لم يكن فيه بطل الحج .

فيجب أن يجتمع لمحاربة هذه العلة ، المعلم فى المدرسة ، والكاتب فى الصحيفة ، والواعظ فى المسجد ، حتى تنشىء نشئاً قوى الإرادة ، ماضى العزم ، (يثب) إلى غايته وثوب الأسد ، ويحط عليها حط النسر ، ولا يدع اليهود يكونون أمضى منه يداً ، وأجرأ قلباً ، وأعظم أثراً .

إن (الوثوب) إلى الخير ، والثبات عليه ، جماع الفضائل كلها ، فإن تعلمناها لم نحتج بعدها إلى شىء .

على الطنطاوى

ظهرت الطبعة الجديدة من كتاب

فى أصول الأدب

للأستاذ أحمد حسن الزيات

يطلب من دار الرســـالة

ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ٢٥ قرشاً